الخليفة الخامس

عمر بن عبد العزيز

رضي الله عنه

بقلم:

حمدي شفيق

(1)

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفقد أحوال الرعية كعادته كل ليلة عندما سمع امرأة تقول لابنتها: قومي إلي اللبن فاخلطيه بالماء. أبت الفتاة أن تفعل قائلة: يا أماه إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد نهي عن غش اللبن بالماء. ردت الأم: وهل يرانا عمر الآن إذا فعلنا ؟ قالت الفتاة الصالحة: يا أماه إذا كان عمر لا يرانا فإن ربه يرانا. مضي الأمير حامدا ربه أن جعل في أمته مثل هذه الزهور الواعدة، وأسرّ رضي الله عنه في نفسه أمرا .في الصباح استدعي المرأة وابنتها، وسألهما عما حدث بينهما البارحة، فقصتا عليه ما حدث بكل الصدق والأمانة. تذكر الفاروق أن ابنه عاصما قد بلغ مبلغ الرجال ولم يتزوج بعد. وهل يجد عاصم زوجة صالحة موفورة العقل والذكاء مثل هذة الفتاة الأمينة ؟

دعا الفاروق ابنه وأشار عليه بخطبة الفتاة ووافق الابن الصالح من فوره.

وكأن الأمير الملهم كان يستشف ما وراء حجب الغيب، ولا عجب فهو الفاروق الذي كان ينطق بالكلمة فينزل القرآن الكريم بها من فوق سبع سماوات!!

فقد ولدت هذه الزوجة التقية لابنه عاصما بنتا سمّاها ليلي كان لها فيما بعد شأن عظيم . وما كان غريبا أن تشب ليلي عن الطوق في بيت الخلافة الراشدة فترضع التقي والعدل والعز ومكارم الأخلاق، وتتفتح أكمامها يوما بعد يوم، مبشّرة بفجر جديد يخلق في رحمها ليعيد إلي الأرض ما فقدته حينا من الدهر، بعد أن ودّعت أربعة من خلفاء رسول الله صلي الله عليه وسلم في أمته، وتحولت الخلافة الراشدة إلي ملك كريه مغتصب يتوارثه بنو أميّة بغير رضا أو شوري من المسلمين.

وقد كان من كرامات الفاروق عمر رضي الله عنه أنّه يلهم بالأمر فيحدث كما توقعه بلا زيادة أو نقصان. وهناك قصته المشهورة عندما صعد إلي المنبر ليخطب الجمعة وفجأة صاح : يا سارية الجبل الجبل ومن استرعي الذئب الغنم فقد ظلم. ويومها عجب الناس وظنّوا بعقل أميرهم الظنون، ولكن شاء الله أن يأتي البشير بعد ذلك بانتصار جيش سارية علي الفرس في نهاوند ،وأخبرهم بأنهم سمعوا في تلك الجمعة التي وقع فيها القتال صوتا يقول يا سارية الجبل الجبل فاحتموا بالجبل وكان هذا سببا لتحقيق النصر بإذن الله.

ومنها أيضا أنه كان يردد كثيرا وكأنه يناجي نفسه بما أطلعه الله عليه سبحانه وألهمه إياه: "ليت شعري من هذا الذي بوجهه شجّة- أثر جرح- من آل عمر يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا؟!

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه لا يكفّ عن التبشير بخلافة عمرية أخري قبل قيام الساعة. وكان يقول: يا عجبا، يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر الخلافة يعمل بمثل عمل عمر. وكانوا يظنون أنه سيكون بلال بن عبد الله بن عمر، لأن في رأسه علامة تشبه تلك التي جاءت بها الآثار. لكن القدر كان يحتفظ بها لحفيد فتاة أمينة اتقت ربها، وأبت ذات ليلة أن تبيع دينها بقليل من الماء تزيد به وزن اللبن.

تزوجت ليلي بنت عاصم بن عمر بالشاب الصالح عبد العزيز بن مروان الذي خرج مع أبيه مروان بن الحكم إلي الشام. وقدّر الله للأب أن يلي الخلافة ، فجعل الأمر من بعده لابنه عبد الملك ثم لأخيه عبد العزيز. وفي سنة 65 بعد الهجرة النبوية الشريفة تولى عبد العزيز بن مروان حكم مصر. وفي حلوان ولدت ليلي ابنها عمر بن عبد العزيز . كانت الغنائم وأموال الخراج تتدفق علي بيت المال من كل حدب وصوب، ولم يكن

أمير مصر يأل جهدا في التوسعة علي الرعية من مال الله . وكان يحرص علي تكريم العلماء والصالحين ومنهم عبد الله بن عمر الذي كان يتلقى الدنانير من عبد العزيز بن مروان فيوزعها كلها علي الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وغيرهم من المستحقين. وكان عبد العزيز يقول لجلسائه: عجبا لمؤمن يوقن أن الله يرزقه ويخلف عليه فيحبس مالا عن عظيم أجر وحسن ثناء؟!

أحضروا إليه ذات مرة أمواله ليحصيها فإذا هي أكثر من ثلاثمائة مد من الذهب، وهو قدر يعادل ملاين الدنانير، لكن الرجل الصالح لم يغتر بكثرة المال ولم يفخر علي جلسائه بنعمة الله الوافرة، بل انهمرت الدموع علي خديه وهو يقول: والله لوددت أنه بعر (أي مخلفات الإبل) ولوددت أني لم أكن شيئا مذكورا، وددت أن أكون هذا الماء الجاري أو نباتة بأرض الحجاز. كان عبد العزيز بن مروان يشعر بثقل التبعة الملقاة علي كاهله، و يعلم أنه سيحاسب علي ما أعطاه الله من السلطة والمال حسابا عسيرا يوشك أن يلقي به في أعماق الجحيم ما لم تدركه رحمة الله ومغفرته. ولهذا كان حريصا علي الإنفاق من ماله ما استطاع إلي ذلك سبيلا، وكان يتقي الله في أهل مصر، ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يشب أولاده علي شاكلته.

(2)

من بين أولاد عبد العزيز بن مروان كانت للصغير عمر مكانة خاصة في قلب أبويه. كانا يعلمان أن له شأنا أخبر عنه جده الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعم والدته عبد الله بن عمر وعدد كبير من الصحابة والتابعين الذين أجمعوا علي أن أعدل حكام بني أمية قاطبة سيكون فتي برأسه شجة (إصابة)، و ينتهي نسبه إلي أمير المؤمنين عمر رضي الله

عنه. ولم يكن هذا الأشج سوى الصغير عمر بن عبد العزيز الذي تحققت الآية فيه مبكرا.
دخل مرة إلى إصطبل خيول أبيه ليلهو ويلعب فركله جواد في رأسه. ذاب قلب عبد العزيز وهو يمسح الدماء الغزيرة من رأس طفله، وفزعت أمه ليلي بنت عاصم، لكنهما أيقنا منذ تلك اللحظة أن الخلافة الراشدة الموعودة توشك أن تصادف موضعا من حفيد ابن الخطاب. راح عبد العزيز يخفف ألام الطفل ويهوّن علي زوجته قائلا: " إن كنت يا ولدي أشج بني مروان أنك إذا لسعيد". وما له ألا يكون هو وقد كانت أمه تدخل عليه في طفولته المبكرة ، فإذا هو يبكي لذكر الموت والحساب. كان الصغير قد أتم حفظ القران الكريم في فترة قصيرة، وأراد أبوه أن يجعله معه في مصر حيث ولايته، لكن الفتي الذي لم يكن قد بلغ الرشد بعد قال له: يا ابتي إني أرغب في أمر لعله يكون أنفع لي ولك؟ سأله أبوه: وما هو؟ أجاب عمر: ترسلني إلي المدينة فأجلس إلي فقهائها لأتعلم منهم وأتأدب بآدابهم .كان رأى الصغير العبقري صائبا ، فأرسله أبوه إلي صالح بن كيسان رضي الله عنه- وكان من كبار فقهاء المدينة- ليعلمه. وفي مدينة رسول الله صلي الله عليه وسلم بدأت مرحلة جديدة من حياة الفتي الذي تصنعه الأقدار لأمر عظيم. وكان من حفظ الله له أنه خطا إلي المراهقة والفحولة في المدينة بعيدا عما انغمس فيه أقرانه وبنو عمومته من ملذات ونعيم زائل بأرض الشام التي تحولت في عهد الأمويين الي بلاد للفتنة والتكالب علي حطام الدنيا تشبها بأباطرة الرومان وأكاسرة الفرس. وشتان ما بين فتي يستهل صباه بحفظ القرآن الكريم وما استطاع من الفقه وحديث الرسول صلي الله عليه وسلم والصبر علي ملازمة كبار الفقهاء من الصحابة والتابعين ليل نهار، وآخر يشب بين أحضان الجواري ونعيم القصور الذي ينسي أهلها أمر الآخرة

والحساب، فيقتل فيه الرجولة ويعكر صفاء الذهن ويترك الشاب مسخا مشوها لا يكاد يصلح لشيء.

(3)

ربما لم يعرف تاريخ ولاة بني أمية أشر ولا أخبث من الحجاج بن يوسف الثقفي طاغية العراق الذي باع دينه بدنيا بني مروان بن الحكم، و سفك دماء مئات الألوف من المسلمين، وضرب وجوههم، وشرّد أطفالهم ونساءهم، واعتقل أشرافهم، وأذل سادتهم في سبيل تثبيت دعائم الملك الأموي. أجل إنه الحجاج دعوة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما علي أهل العراق الذين فسقوا ونافقوا ولم يسلم أمير من أذاهم وشقاقهم وخيانتهم. فقد جاءت الرسل إلي عمر رضي الله عنه يوما ليخبروه بأن العراقيين قذفوا الوالي علي منبره بالحصى . غضب عمر حتى سها لأول مرة في صلاته، وعندما فرغ دعا علي أهل العراق قائلا:" اللهم عجل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم الجبابرة لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم ".

وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يدعو علي أهل العراق بعد أن خذلوه قائلا: اللهم كما ائتمنتهم فخانوني ونصحت لهم فغشوني ، فسلط عليهم فتي ثقيف الذيّال الميّال يأكل خضرتها ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية. وهو الطاغية المبير (المهلك) الذي قال عنه رسول الله صلي الله عليه وسلم " يخرج من ثقيف رجلان كذّاب ومبير ".كما أخبرت السيدة أسماء بنت أبى بكر الصدّيق رضي الله عنهما.

لم يكتف الحجاج بسفك الدماء الذكية أنهارا بلا ذنب أو دليل ، وإنما أضاف إلي ذلك كبائر من الذنوب لا تحصي ولا توصف . كان يتطاول علي كبار الصحابة بما لا يجرؤ علي النطق به مسلم، رغم الإجماع المعروف على كفر من يسب صحابة

الرسول صلي اللـه عليـه وسـلم. وكـان لا يتـورع عن فعـل أي شئ ينافق به حكام بني مروان ويرضيهم عنه ولو بسخط اللــه عز وجل وقهر الأبرياء العزل بلا جريرة. ومن ذلك أنه بعث إلي عبد الملك بن مـروان يحرضـه علي خلـع أخيـه عبـد العزيـز من ولاية العهد وتولية ابنه الوليـد بن عبـد الملـك بـدلا منـه. وكـان حكام بني أمية منذ عهد معاوية بن أبي سـفيان قـد دأبـوا علي توارث السلطة بلا رضا من المسلمين أو إعمال للشورى الــتي أمر بها القران الكريم. فكان الحاكم الأموي يبعث في الأمصار بالبيعة لمن يشاء من أولاده، فمن أبي البيعـة من الرعيـة فـإن مصيره الموت علي الفـور بسـيوف الـولاة الطـواغيت . كـذلك أخذ مروان بن الحكم البيعة لولديه عبـد الملـك ثم عبـد العزيـز رغبا ورهبـا، لكن عبـد الملـك بن مـروان بتحـريض من الحجـاج الثقفي طمع في تولية ابنـه الوليـد بـدلا من أخيـه ، فكتب إلي الأخر- وكان عبد العزيز واليا علي مصر في ذلك الوقت- يطلب منه التنازل عن ولاية العهد للوليد بن عبد الملك .

رفض عبد العزيز مطلب أخيه الطامع، ورد عليـه مرشـحا لابنـه أبي بكــر بن عبــد العزيــز بــدلا من الوليــد. و ســاءت علاقــات الأخوين لذلك السبب، فأرسل عبد الملك إلي عبد العزيز يأمره بإرسال خراج مصر إليه خلافا لما تعارفا عليـه من قبـل . فقـد كان والى مصر لا يرسل شيئا من الخراج إلي الخليفـة الأمـوي بدمشق ، وينفقه كله في مصالح المصريين. ولجـأ عبـد العزيـز إلي ملاطفة أخيه حتى لا يرهق أهل مصر بدفع الخراج ، فكتب إليه يقول: إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا عمـرا لا يبلغـه أحد من أهل بيتنا إلا كان بقاؤه بالدنيا قليلا ، وإني لا أدري ولا تدري أنت أيضا أينا يأتيه الموت أولا ، فــإن رأيت ألا تعتب علي بقيـة عمـري فافعـل . تـأثر عبـد الملـك بالرسـالة فكـف عن محاولات إرغام أخيه علي التنازل عن ولاية العهد وتـرك الأمـر لله.

(4)

لم يجد حاسدو الفتي الأموي الناضر له عيبا سوي المبالغة في ارتداء أفخر الثياب وأجودها وأغلاها ثمنا.

كانت له أموال تدر ريعا سنويا يزيد علي أربعين ألف دينار، لكنه لم ينس الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فقد ورث الكرم والمروءة ومحبة المساكين، وهو وإن كان مترفا ناعما فإنه أيضا شب بين فقهاء مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم ومن بقي علي قيد الحياة من أصحابه الأبرار وأتباعهم الصالحين. ولهذا كان يفئ إلي الحق عندما يذكره أحد به، ويقضي الأيام والأسابيع يحاسب نفسه علي أدني هفوة خشية أن يميل بها ميزانه يوما تشخص فيه القلوب والأبصار .

تأخر الصبي ذات يوم عن صلاة الجماعة فسأله معلمه صالح بن كيسان: ما شغلك عن صلاة الجماعة؟

أجاب عمر: كانت مربيتي تسوّي شعري!

قال له المعلم: قدّمت هذا علي الصلاة؟!! وأرسل إلي والده بمصر يخبره بما حدث. غضب عبد العزيز بن مروان بشدة علي ولده، وأرسل إليه من مصر رجلا وأمره ألا يكلم ابنه حتى يحلق شعره كله تأديبا له علي تأخير الصلاة في تلك المرة اليتيمة .

هكذا كانوا يربون الأطفال ويصنعون منهم بإذن الله رهبانا بالليل فرسانا بالنهار. وهكذا نشأ عمر بن عبد العزيز، حتى قال عنه معلمه وهو لم يزل صبيا غضا: ما علمت أحدا الله أعظم في صدره من هذا الغلام.

كان عمر يغشي مجالس العلم والفقه والذكر في المسجد النبوي الشريف فيسمع من أنس بن مالك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وسالم بن

عبد الله وعروة بن الزبير وغيرهم من كبار الفقهاء والصالحين في عهده. وربما شدد عليه بعضهم وأغلظ له القول وهو يعظه، فلا يغضب الفتي الأموي، وهو ابن حاكم مصر وابن شقيق الخليفة الأموي الذي ترتعد أوصال أكثر الرعية فرقا من سيفه، وتطمح أبصار الكثيرين إلي ذهبه البراق وعطاياه المسرفة للأنصار والحواشي.

كان عمر يتواضع لهؤلاء الأعلام الفحول، وكانوا هم لا يعبأ ون بجاه الحكام وسلطانهم وما في أيديهم من أموال، لأنهم كانوا يزنون الدنيا بالميزان الصحيح، فلا يجدونها تساوي جناح بعوضة أو ما دونه، ولا يعنيهم منها إلا أن يعبروها بسلام إلي آخرة خير وأبقي. علم عبيد الله عبد الله بن عتبة رضي عنه إن تلميذه عمر بن عبد العزيز تحدث مرّة بلهجة غير مقبولة عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

كان الصبي يردد ما اعتاد عليه الأمويون منذ وقع الخلاف علي الحكم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

فأعرض عبيد الله عن تلميذه طويلا ثم نهره قائلا: متي علمت أن الله سخط علي أهل بدر -ومنهم علي- بعد أن رضي عنهم ؟! فهم عمر ما يقصده شيخه فهتف: معذرة إلي الله ثم إليك ، والله لا أعود إلى مثلها أبدا، فلم يسمعه أحد بعد ذلك يذكر عليا إلا بكل خير.

(5)

مات عبد العزيز بن مروان في السنة الخامسة والثمانين بعد الهجرة النبوية الشريفة. ورغم تأثر عبد الملك بن مروان بوفاة أخيه ونائبه علي مصر، إلا أنه لم يستطع أن يكتم فرحته بالفرصة التي واتت ابنه الوليد ليكون وليا للعهد بعد وفاة عمه. إنه الحرص على الملك والتشبه المرذول بالفرس والرومان، وليست الخلافة التي كانت في عهود أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب رضوان الله عليهم. وسرعان ما

انتهز عبد الملك الفرصة فأرسل إلي نوابه في البلاد قبل إن تجف الدماء في عروق أخيه المسجي يأمرهم بأخذ البيعة لابنه ، فبايعت الرعية خشية سيوف الجبابرة في دمشق و سائر بلاد المسلمين حتى مكة والمدينة ، لكن رجلا واحدا في مدينة الرسول العظيم أبي البيعة الجائرة بحد السيف. إنه عالم المدينة التابعي الجليل سعيد بن المسيب رضي الله عنه . أنكر الرجل الصالح ما يفعله عبيد السلطة والجاه الذين آّثروا أنفسهم وأهليهم بالأموال والخراج والغنائم، ولم يجعلوا حدا فاصلا بين أموالهم الخاصة وأموال المسلمين، وجاهر بنقد سلوكيات الأسرة الأموية الحاكمة، ودعا الناس إلي رفض البيعة التي لا تقوم علي أساس من الاختيار الحر الهادف إلي تحقيق مصلحة الإسلام والمسلمين. وهنا أسفرت السلطة الغاشمة عن وجهها القبيح، فأرسل عبد الملك بن مروان إلي نائبه علي المدينة هشام بن إسماعيل يأمره بالقبض علي العالم الجليل والتنكيل به علي مرأى ومسمع من أهل مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم ليكون عبرة للناس فيبادروا بالامتثال والطاعة للسادة الحكام.

ورأي الفتي اليافع عمر بن عبد العزيز مشهدا أسخطه وملأ نفسه الذكية كربا وأسي.

اقتاد جنود الوالي الغشوم هشام بن اسما عيل العالم الجليل ذات صباح إلي وسط المدينة مكبّلا بالأغلال، وراحت سياطهم الفاجرة الآثمة تلهب ظهره الطاهر في جنون وحشي ،والناس يرتعدون هلعا، وكلهم يأسي لما أصاب الشيخ المبارك، لكن أحدا لا يجرؤ علي التصدي للطغاة الذين سفكوا الدماء وأذلوا الرقاب في سبيل تنفيذ رغبات ملوك بني أمية .

لم يكتفوا بجلد ولي الله أمام أهله وتلاميذه، بل ألبسوه ثيابا من الشعر ووضعوه علي ظهر جمل أجرد وطافوا به مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم حتى قالت له امرأة في حسرة:

ما هذا الخزي يا سعيد؟! تقصد أن تلومه علي ما صنعه بنفسه، فرد عليها في يقين موضحا لها أن الخزي ليس في تعرضه للعذاب والبطش، ولكن الخزي والذل في طاعة الحكام الظالمين وتلبية أوامرهم ورغباتهم . و قد أودع الفقيه العظيم سجن المدينة مرة أخري، لكنه أصر علي موقفه المناهض للظلم و الباطل والطغيان. ولعل هذا كان أعظم درس تلقاه عمر بن عبد العزيز من أستاذه ومعلمه سعيد بن المسيب رضي الله عنه طول فترة مكثه بالمدينة.

إن العالم أو الداعية لا ينبغي له أن يشتري بآيات الله وأحكامه ثمنا قليلا تافها من دنيا الناس الفانية، وإنما عليه أن يقف- ولو وحيدا- ليصدع بكلمة الحق في وجه السلطان الجائر مهما ناله من بطش و أذى، وهذا أفضل الجهاد عند الله عز وجل.

(6)

استدعي عبد الملك بن مروان ابن شقيقه عمر بن عبد العزيز إلي دمشق بعد وفاة أبيه. كان عمر قد بلغ مبلغ الرجال وتجمعت فيه كل الصفات التي ترجي في الشباب وهى التقوى والعلم والفتوة والجمال وغني النفس و المال. وماذا يبغي عبد الملك بن مروان بعد ذلك من شروط فيمن يتزوج ابنته الحسناء فاطمة ؟ إن عبد الملك بما لديه من فطنة وفراسة كان يرى في عمر دون باقي أبناء أخوته وأقاربه من الأمويين نموذجا نادرا، ولهذا كان طبيعيا أن تقع عينه الخبيرة الفاحصة عليه هو بالذات ليرشحه زوجا لأكرم الناس عليه وأحبهن إليه وأحظاهن لديه وهي ابنته الوحيدة فاطمة.

وكان عبد الملك يقرب عمر إليه ويدنيه من مجلسه ولا يخفي إعجابه بعلمه وتقواه. ولم ينس قبل وفاته أن يوصي ابنه الوليد بأخته فاطمة وزوجها عمر بن عبد العزيز. كما أثرها بأغلى الحلي والجواهر التي كانت تحمل إليه من غنائم الفتح في بلاد فارس والروم وافريقية وغيرها.

علي أن هذا لم يؤثر علي مشاعر عمـر رضـي اللـه عنـه الـذي كان ينقم علي عمه إسرافه مثل غيره من حكام بني أميــة في قهر الرعية وكثرة المظالم التي ارتكبها في سبيل المحافظــة علي عرشه والقضاء علي شتئ الحركات المناوئة لحكمـه. كمـا لم ينس عمـر بن عبـد العزيـز أن عمـه جـاء بالطاغيـة الثقفي الحجاج بن يوسف ، وأطلـق يـده في البطش بكـل من يخـالف النظام الأموي .وحتى أم القرى البلـد الحـرام لم يتـورع جنـود الحجـــاج عن انتهـــاك حرمتهـــا ، وضـــربوا الكعبـــة المشـــرفة بالمنجنيق، وأحرقـوا أسـتارها، وأفسـدوا موسـم الحج، وقتلـوا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه لمجرد أنـه رفض مبايعـة أحـد بعد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

كذلك بطش الحجـاج - برضـاء من عبـد الملـك - بأهـل العـراق والمدينـة وبلاد الفتح في فـارس ومـا وراءهـا، كمـا لم يسـلم هشام بن إسماعيل نائب عبـد الملـك علي المدينـة وغـيره من الــولاة من ارتكــاب العديــد من الجــرائم المنكــرة والمظــالم الفاجرة نزولا علي أوامر بني مروان.

وقد فزع عمـر بن عبـد العزيـز عنـدما بلغتـه مقولـة عمـه عبـد الملـك: قـد أصـبحت لا أفـرح بالحسـنة إذا فعلتهـا ، ولا أحـزن للسيئة إذا ارتكبتها ، فقد أدرك أنها دليـل كمـا قـال سـعيد ابن المسيب رضي الله عنه علي موت قلبه وأنه صار من الغافلين.

كذلك كظم عمر غيظه وهو يسمع عمه قبيل موته يوصي ولي عهده الوليد بتكريم الحجاج بن يوسف طاغية العراق بحجة أنه هو الذي:" مهد لبني مروان البلاد وقهر الأعداء وخلصّ لعبد الملك وبنية الحكم وشتت الخصوم"!! ثم وهو يوصيه أيضا قائلا له: إذا أنا مت فادع الناس إلي بيعتك. فمن أبي فاضرب عنقه بالسيف !!

يـا إلهي. حـتى وهـو علي فـراش المـوت لا يتـورع عن إسـداء النصائح الآثمة والأوامـر الفـاجرة إلي ولي عهـده بـأن يواصـل السـير علي درب القهـر والظلم والطغيـان، فيكـرم السـفاح الدموي الثقفي ، ويطيح برقاب المسـلمين إذا رفضـوا تـوارث الحكم والاسـتئثار بالسـلطة!! لهـذا لم يكن عجيبـا أن تسـودّ وجوه هؤلاء بعد موتهم وأن يندم أحـدهم ويلطم وجهـه بيديـه- وهو عبد الملك نفسه- ويلوم نفسه لأنه قبل الحكم وفرّط في طاعة الله عز وجل.

(7)

اسـتهل الوليـد بن عبـد الملـك عهـده بالبـدء في بنـاء المسـجد الأموي الكبير في دمشق عاصمة الخلافة في ذلك الوقت. وقد استمر تشيد هذا الصرح الحضـاري الهائـل طـوال فـترة خلافـة الوليد وهي تسع سنوات ونصـف السـنة. ويـروي أنـه لم ينفـق علي بنـاء المسـجد درهمـا واحـدا من أمـوال المسـلمين وإنمـا انفق عليه 11 مليون دينـارا من مالـه الخـاص. وأبي بشـدّة أن يتحمــل بيت المــال شــيئا من تكــاليف بنــاء المســجد. ورغم اجتهاده في اسـتمرار الفتوحـات الإسـلامية وإرسـال الجيـوش بصفة دائمـة إلي بلاد الـروم وأفريقيـا وغيرهـا، إلا أنـه كـان لا يتورع عن قمع المعارضين بقسوة وشراسة تمامـا كمـا أوصـاه أبوه وهو علي فراش الموت. وشاء قـدر اللـه إن تمـر بالنـاس نفحات من رحمته ، فقرر الوليد عزل هشام بن إسـماعيل عن إمارة مدينة الرسول صـلي اللـه عليـه وسـلم في سـنة87 بعـد الهجـرة، وعيّن بـدلا منـه ابن عمـه وزوج أختـه عمـر بن عبـد العزيز. كـان عمـر قـد بلـغ خمسـا وعشـرين سـنة عنـدما ركب بعيره في شـهر ربيـع الأول من هـذا العـام إلي يـثرب ليباشـر أعبــاء الولايــة. نــزل الــوالي الشــاب دار جــده مــروان بن الحكم .وجاء النـاس أفواجـا يصـافحون الأمـير الجديـد بسـعادة بالغة، و ألسنتهم تلهج بحمد اللـه تبـارك وتعـالي أن جعـل لهم

بعــد العســر يســرا، ورفــع عنهم ظلم الطاغيــة هشــام بن إسماعيل، واستبدله بالفتي التقي الذي تــربي بين ظهــرانيهم وتشرّب العلم والورع من كبار علمائهم وفقهائهم. و كان أول ما فعله عمر رضي الله عنه بعد صلاة الظهـر بالمسـجد النبـوي الشريف هو دعوة عشرة من كبار فقهاء المدينة هم: عروة بن الزبـير، وعبيـد اللـه بن عبـد اللـه بن عتبـة، وأبـو بكـر بن عبـد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبو بكـر بن سـليمان بن خليفـة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسـالم بن عبـد اللـه بن عمر وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت.

دخل العشرة الكبـار إلي مجلس الأمـير الشـاب ليعرفـوا لمـاذا دعاهم وليسمعوا كيـف يحكم هـذا الفـتي المدينـة، وهـو الـذي توسموا فيه الخير والصلاح منذ جـاء إلي مجالسـهم طفلا غضـا يطلب العلم. حمد عمر ربه وأثني عليه بما هو أهل لـه ثم قـال موجها حديثه لأستاذته العشرة:" إني لا أريد أن أقطـع أمـرا إلا برأيكم .فإن رأيتم أحدا يتعدّى أو بلغتكم عن عامل لي مظلمة- ظلما للرعيـة- فاسـتحلف من بلغـه ذلـك أن يطلعـني عليـه ". بهذه العبارات المشرقة بـدأ الأمـير الشـاب ولايتـه علي مدينـة رسول اللـه. لقـد اختـار مجلسـا للشـورى يضـم كبـار الفقهـاء ووجهاء المسلمين من ذوي العلم والكفايـة والعدالـة والمكانـة ليشاركوا في تحمل المسئولية ويشيروا عليه بالرأي الصــواب، لأن يد الله مع الجماعة، ومن استبد برأيه فقد هلك. وهو أيضــا يشدّد التنبيه علي هؤلاء الصالحين الصادقين ألّا يتركوا واقعــة تبلغ مسـامعهم عن أي عامـل من عمالـه يظلم فيهـا أحـدا من الناس إلا أبلغوها له شخصيا، حتى يتخذ فيها إجراء رادعـا يعيـد الحق إلي أهله، ويعاقب العامل الظالم بشدّة كي لا يعيد الكرّة . خـرج العلمـاء العشـرة من مجلس عمـر بن عبـد العزيـز وهم يدعون له بـالتوفيق والعـون والرشـد. وكـانت الخطـوة التاليـة

التي أقدم عليها عمر هي تمكين أهـل المدينـة من نيـل حقهم المشروع في القصاص من الحاكم الظالم هشام بن إسـماعيل الذي أذاقهم ألوان العذاب والتنكيل طيلة 4 سنوات. ومن آيات أوليـاء اللـه الصـادقين أنهم يعفـون عنـد المقـدرة ولا يجـزون بالسيئة السيئة، بل يحسنون إلي من أذاهم وبطش بهم ،وهـذا ما فعله العـالم الجليـل سـعيد بن المسـيب وعلي بن الحسـين رضي الله عنهما بهشام بن إسماعيل.

(8)

وربما كان من خصائص حكام بني مروان أنهم خلطوا أعمالا صالحة بأخرى سيئة ولم يخل أحدهم من مناقب حسنة وإن أساء وتعدي وظلم.

وهم في جميع الأحوال بشر ابتلاهم الله بالرعية وابتلي الرعية بهم وابتلي الطائفتين بالدنيا . وليس مستحيلا أن تكون للجواد الأصيل كبوة وربما كبوات ، وأمر الجميع إلي الله إن شاء عذب وإن شاء غفر . لقد اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد الأمويين بصفة عامة، وكان الجهاد في سبيل الله فريضة ألزم بها الخلفاء أنفسهم وجيوشهم ، وأوصوا بها أولادهم ومن يأتي بعدهم، واجتهدوا جميعا في العبادة والعلم ومحاربة الفتن والخرافات والأباطيل ونشر دعوة الإسلام وتعظيم شعائر الله. وعلي سبيل المثال فقد كان عبد الملك بن مروان فقيها من المعدودين بالمدينة قبل توليه الخلافة، وكان ابن عمر رضي الله عنه يرشحه للإفتاء وتدريس العلم . وقال أبو الزناد: فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان. وفي عهد عبد الملك اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بضم بلاد ومناطق من المغرب وأرمينية و بلاد الفرس و الروم. وكان ابنه الوليد حريصا علي استمرار الجهاد في عهده، وفتحت علي يديه الهند والأندلس وأفغانستان وأذربيجان وغيرها . وكان من أكثر

الخلفاء اهتماما بالتشييد والعمران وخاصة بناء المساجد ومنها المسجد الأموي العريق بدمشق، والمسجد النبوي الذي أصدر أمره إلي واليه علي المدينة – عمر بن عبد العزيز- بإعادة بنائه وتوسعته بإضافة حجرات أزواج الرسول صلي الله عليه وسلم وشراء ما حوله من الأراضي والبيوت بثمن عادل أو نزعها من أصحابها-بثمن أيضا إن رفضوا البيع - في سبيل توسيع مساحة مسجد النبي صلي الله عليه وسلم.

وكعادته جمع عمر بن عبد العزيز من بقي حيا من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم و فقهاء المدينة العشرة وكبار الصالحين وذوي المكانة في يثرب، وقرأ عليهم كتاب الوليد. كان هدم المسجد النبوي أمرا شاقا علي النفوس، وقال الفقهاء و الصالحون أن حجرات زوجات الرسول صلي الله علية وسلم المتواضعة يجب أن تبقي علي حالها ليعتبر بها الحجّاج والزوار القادمون من شتي بلاد المسلمين ويقتدون بما تمثله من الزهد والبساطة والقناعة من الدنيا باليسير، فقد كانت حيطانها من الطوب اللبن المصنوع من الطين الذي لم يدخل النار، وكانت سقوفها من جريد النخل، وعلي أبوابها المسوح- أثواب مصنوعة من الشعر- فأراد الفقهاء أن تبقي على حالها ليري الناس بيوت نبيهم البسيطة فيزهدوا في الدنيا ولا يعمّرون فيها إلا بقدر الحاجة، وهو ما يستر ويكن.و قال العلماء في ردهم علي أمر الوليد:" إن البنيان العالي هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة وكل طويل الأمل في الدنيا راغب في الخلود بها. وإزاء هذا الرأي توقف عمر رضي الله عنه وبعث إلي الوليد بما أجمع عليه العلماء وأهل الرأي والشورى. لكن الوليد رفض الانصياع لرأي الفقهاء ونفّذ رغبته هو في هدم المسجد وإعادة بنائه علي أحدث طراز في ذلك الوقت مع توسيعه بمقدار مائتي ذراع طولا وعرضا. وللإنصاف نقرر أن الوليد كان أبعد نظرا وأصوب

رأيا، فقد كثر الناس واحتاج الحرم إلي عدة توسعات فيما بعد كما رأينا في عصرنا هذا . وما كانت تلك التوسعات ممكنة إلا بهدم الحجرات وإضافة مساحتها إلى المسجد. كما أنه لا حرمة لمبنى أو مكان في الإسلام إلا الكعبة المشرفة والمسجد النبوي والقبر الشريف وليس لحجرات زوجات النبي في ذاتها.

وقد تولي عمر بن عبد العزيز إمرة الحج خلال العامين الأولين من خلافة الوليد وصلي بالناس صلاة الاستسقاء فأمطرت مكة وما حولها وأخصبت أرضيها بصورة غير معهودة، ولعلها بركات الوالي العادل أشج بني مروان.

(9)

سار عمر بن عبد العزيز في أهل المدينة سيرة جده العظيم عمر بن الخطاب. وسعد به الصحابة والتابعون لما وجدوا فيه من القدوة الصالحة لغيره من الحكام، وعوضا للمسلمين عما يفعله الحجاج بن يوسف وغيره من عمال الوليد بن عبد الملك .. قال عنه الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه: " ما صليت وراء إمام-بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم- أشبه صلاة بالرسول صلي الله عليه وسلم من هذا الفتي" يقصد عمر بن عبد العزيز أمير المدينة .وقال زيد بن أسلم رضي الله عنه: كان عمر يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود .. وجاء إليه رجل صالح ذات يوم فأخبره بأنه رأي النبي صلي الله عليه وسلم في المنام، وكان أبو بكر رضي الله عنه يجلس علي يمينه ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلس علي يساره وأمامهم رجلان يختصمان وبين يدي الرسول صلي الله عليه وسلم كان عمر بن عبد العزيز جالسا.. وقال النبي صلي الله عليه وسلم لابن عبد العزيز:" يا عمر إذا عملت فاعمل بعمل هذين – أبو بكر وعمر بن الخطاب ". ولم يطمئن عمر بن عبد العزيز حتي أقسم له

الرجل أنه رأي هذا في منامه وتحقق من كل كلمة أمره بها الرسول صلي الله عليه وسلم .. حينئذ لم يتمالك عمر بن عبد العزيز وجعل يبكي مشفقا علي نفسه من ثقل التبعة، ووعورة الطريق، وقلة الزاد، وبعد السفر .. ورغم كثرة الصحابة والتابعين الأجلّاء في مكة والمدينة كان عمر بن عبد العزيز- رغم حداثة سنه- يؤم الناس في الحج طيلة سنوات ولايته علي مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم ، اللهم إلا سنة واحدة حج فيها بالناس الوليد بن عبد الملك ، وصحبه عمر خلالها أيضا .. وقد استطاع عمر رضي الله عنه أن يلطّف من حدّة الوليد بن عبد الملك ، وأن يقنعه بالتخلي عن إيذاء كبار الفقهاء والصالحين الذين رفضوا بيعته ، علي خلاف ما كان الحجاج الخبيث يفعل زلفى ونفاقا للوليد .

خرج أشراف المدينة لاستقبال الوليد بن عبد الملك أثناء مروره بها في طريقه إلي الحج، ولم يخرج معهم فقيه المدينة سعيد بن المسيب رضي الله عنه الذي تعرض للضرب والسجن والتشهير لرفضه مبايعة الوليد. وأراد الوليد أن يصلي بالمسجد النبوي الشريف فأخلاه حراسه من الناس، لكن أحدا لم يجرؤ علي إخراج عالم المدينة سعيد بن المسيب من المسجد .. حدث هذا رغم أن العالم الجليل كان يرتدي في تلك اللحظات ثوبا رخيصا ثمنه خمسة دراهم !! ولكن متي كان للثياب دور في تقييم الرجال ، أو احتساب مكانة العلماء وأقدار أهل الطاعة والتقوى ؟ تجاسر أحد الحراس فقال لسعيد: تنح عن المسجد أيها الشيخ فإن أمير المؤمنين قادم .. غضب ولي الله من جرأة زبانية الحاكم ، وسوء أدبهم في مسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم .إذ

لم يفعلها أحد من الخلفاء الراشدين ، فلم تكن الشرطة تطرد العامة من المسجد النبوي ليصلي فيه أبو بكر أو عمر أو عثمان أو علي بن أبي طالب .. ومن هو الحاكم؟ أنه داخل

المسجد أو خارجه ليس إلا واحدا من المسلمين، لا فضل له علي الآخرين ، ولا يجوز له أن يتميّز علي أفقرهم بشيء سوي التقوى والعلم وحسن الأدب مع الله .. وهكذا أصرّ سعيد علي عدم طاعة الأوامر ، ورفض أن يغادر المسجد مهما حدث . استولي الرعب علي الحراس فقد كان الوليد جبارا رهيبا إذا غضب ،وخشي الجميع أن ينقم الوليد علي العالم الجليل عزّة نفسه ، وقلة اكتراثه بالحاكم ، وبصفة خاصة لأنه رفض أن يبايعه من قبل. ولم يكن ابن المسيب يحب عبد الملك ، وأعلن رفضه القاطع لانتقال السلطة بالميراث البغيض الذي لا شوري فيه ولا رأي للمسلمين. وكان قد رفض أيضا تزويج ابنته الحسناء للوليد بن عبد الملك وأنكحها تلميذا فقيرا من تلاميذه هو كثير بن وداعة وكان مهرها درهمان فقط!! . مما تسبب في ازدياد سخط عبد الملك وولده علي سعيد .

دخل الوليد إلي المسجد النبوي ومعه عمر بن عبد العزيز . صلي الرجلان في مختلف أرجاء المسجد ، وجعل الوليد يتنقل هنا وهناك ليدعو ويستغفر ربه، وعمر يحاول أن يبعده عن الموضع الذي كان سعيد بن المسيب جالسا فيه وحده .. تلفت الوليد أثناء تفقده للمسجد فرأي الشيخ الجليل .. سأل رفيقه : من هذا؟ أهو سعيد بن المسيب ؟ أجاب عمر بن عبد العزيز: نعم يا أمير المؤمنين ، ولو علم أنك قادم لقام إليك وسلم عليك – قال عمر ذلك كي لا يغضب الأمير علي الشيخ – لم يصدّق الوليد وقال لعمر: قد علمت بغضه لنا . فسارع عمر رضي الله عنه بالنفي ، وأثني علي العالم الجليل، وأفاض في سرد مناقبه وسجاياه حتى أقر الوليد بفضله ومكانته . وقال عمر مدافعا عن الفقيه المسنّ: يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر – يعني أن ضعف بصره جعله لا يري الخليفة وهو يدخل المسجد فلم يقم له – فرد الوليد : نحن أحق بالسعي إليه .

ورأي الناس يومئذ عجبا. الوليد بن عبد الملك أقوي حكام الأرض في تلك الفترة ، الذي فتحت جيوشه معظم قارتي أسيا وأفريقيا وأجزاء كبيرة من شرق أوروبا ، يقف بكل قوته وسلطانه وأمواله خاشعا مترفقا أمام كهل أعزل عليه ثوب بخمسة دراهم !! ويلقي الوليد عليه السلام، فيرد الشيخ الجليل السلام وهو جالس في موضعه لم تهتز في جسده شعرة !! ولم الدهشة ؟ أليس هو نفسه العالم والفقيه الذي رفض من قبل أن يزوّج ابنته للوليد ابن عبد الملك بن مروان وجلب علي نفسه الأذى في ذلك الحين بسبب رفضه لهذه المصاهرة المشرّفة بمقاييس أهل الدنيا!!؟

سأله الوليد: كيف حال الشيخ؟ رد سعيد بن المسيب: بخير والحمد لله وحده.. كيف حال أمير المؤمنين؟ رد الوليد: بخير والحمد لله.. بهذه العبارات القصيرة انتهت المقابلة، ومضي الوليد من المكان وهو يردد مشيرا إلي سعيد بن المسيب: هذا فقيه الناس!! إنه الإسلام العظيم الذي يربّي في النفوس العزة والكرامة والشجاعة، فلا ترهب إلا الله ولا تخضع لسواه.

(10)

ويبدو أن الحجاج بن يوسف الثقفي عزّ عليه أن يسمع ثناء الناس ودعوا تهم لعمر بن عبد العزيز، بينما كانوا يصبّون عليه لعناتهم ليل نهار لما يسفك من الدماء ويستحل من المحرمات وإن كان مجتهدا متعبّدا فيما دون ذلك .. اشتعل حقد الطاغية الثقفي أكثر وكاد صدره ينشق غيظا عندما سمع برأي عمر فيه ، وعلم أنه أرسل إلي الوليد يطالبه بإبعاد الحجاج لكف الظلم عن الرعية. وجاء بالرسالة علي لسان عمر:" إن أهل العراق في ضيم وضيق مع الحجاج لظلمه وغشمه، ولو جاءت كل أمة بخطاياها ، وجاء بنو مروان بالحجاج وحده لكفاهم". وطالب الحواري الصالح ابن عمه – الخليفة – بعزل الحجاج والقصاص منه ورد حقوق المسلمين المغتصبة إليهم. وكعادة

كل الظالمين المستبدين، تشبث الحجاج بكل قواه بموقعه وكرسيه ، ولجأ إلى الدس والوقيعة بين الوليد وعمر بن عبد العزيز ليبقي في منصبه .. كتب الطاغية إلي الوليد بن عبد الملك يحذره من خطورة استمرار عمر بن عبد العزيز في ولايته علي المدينة ومكة ، زاعما أن سياسة عمر من شأنها أن تفسد الرعية علي الخليفة ، ولا تستقيم معها أحوال الدولة ! وقال طاغية العراق للوليد:" إن عمر ضعيف عن إمرة الحرمين ، وهذا ضعف في الحكم، فاجعل علي الحرمين- مكة والمدينة – من يضبط أمرهما"!! .. وآثّر الوليد الدنيا والهوى فأبقي علي السفاح الثقفي ، وعزل والي المدينة العادل!!

كذلك أغري الحجاج بن يوسف أميره الوليد بن عبد الملك بخلع أخيه سليمان من ولاية العهد ليعهد بدلا منه إلى ابنه عبد العزيز بن الوليد .. إنها ذات اللعبة الخبيثة التي فشل في إتمامها مع عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز !! وقد فشل هذه المرة أيضا بسبب رفض عمر بن العزيز. وانتهز الحجاج الفرصة السانحة فألهب صدر الوليد وحرّضه علي ابن عمه، ومازال به حتى أمر بحبسه في مكان سدت جميع منافذه ليموت جوعا وعطشا !! وتسامع الناس بما فعل الوليد بزوج أخته وابن عمه حاكم المدينة السابق الذي تحدثت بورعه وعلمه وتقواه الركبان في البوادي ، والمنتديات في الحضر. وبدأت بوادر ثورة شعبية هائلة تلوح في الأفق، ونقل جواسيس الوليد إليه ما يتحدث به الناس في سخط متزايد عن اعتقال عمر بن عبد العزيز لوقوفه ضد الظلم والطغيان. ورأى الوليد أجواء البلاد مليئة بسحب قاتمة من غضب يوشك أن يمسي جحيما لا يبقي ولا يذر، فاضطر إلي إخلاء سبيل ابن عمه -بعد ثلاثة أيام فقط - قبل اندلاع الثورة فى دمشق ومكة والمدينة وغيرها من بلاد المسلمين.

وشاء القدر أن تعم الفرحة بعد ذلك بقليل بهلاك الحجاج الثقفي – في سنة 95هـ - وبموته انهار ركن كبير من أركان دولة بني مروان واستراح أهل العراق أخيرا من إجرامه وطغيانه .

كما لم يلبث الوليد بن عبد الملك أن مرض وتوفي في يوم السبت منتصف شهر جمادى الآخر عام 96 هـ. وحمل جثمان الوليد إلى قبره . وخطب عمر بن عبد العزيز الذي صلي عليه وتولي دفنه في الناس ووعظهم قائلا:" هذا الوليد بن عبد الملك يلقي ربه .. فاليوم ننزله غير موسد ولا ممهد، قد خلف الأسلاب، وفارق الأحباب، وسكن التراب ، وواجه الحساب، فقيرا إلي ما قدم ، غنيا عما أخر".

(11)

تولي الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك واستهل عهده بتعيين ابن عمه عمر بن عبد العزيز مستشارا ونائبا له .. وقد كان سليمان عاقلا عادلا شديد التواضع يريد الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولم يكن يلهث وراء مجد شخصي زائل ، ولهذا لم يجد عيبا في أن يصارح ابن عمه وزوج أخته عمر بن عبد العزيز قائلا :" إنّا قد ولينا ما تري، وليس لنا علم بتدبيره ، فما رأيت من مصلحة الناس فمر- أصدر أمرا به – فليكتب ". وقد أعطي بذلك لمستشاره عمر بن عبد العزيز- تفويضا صريحا بلا حدود لاتخاذ ما يراه صالحا من قرارات وتنفيذه علي الفور.. وكان عمر رضي الله عنه وزير صدق عند حسن الظن به ، فبدأ رضي الله عنه بنواب الحجاج علي البلاد فعزلهم وأراح الناس من ظلمهم، وأمر بإطلاق جميع السجناء والأسري الذين اعتقلهم الحجاج الثقفي بلا ذنب . وكان عددهم يزيد علي 81 ألف سجين منهم 30 ألف امرأة !! وقرر عمر تخصيص جزء كبير من موارد الدولة للإنفاق علي الفقراء والمساكين وغيرهم من المستحقين، وخاصة في العراق التي

حـرم الحجـاج معظم أهلهـا من أنصـبتهم المسـتحقة في بيت المال. وأمر بـرد الصـلاة إلي ميقاتهـا. وكـان الحكـام من بـني مـروان يـؤخرون الصـلوات عن أوقاتهـا إتباعـا للهـوى بلا نص شرعي أو سنّة ثابتة . وكان من أوامره إرسال جيش كبير لغزو القسـطنطينية وجهـاد أهلهـا الـذين بغـوا علي جـيرانهم من المسلمين .. واستمر هذا حال الخليفة ونائبه طوال فترة حكم سليمان- سنتان وثمانية أشهر – وقد شهد الكثـيرون لسـليمان بن عبد الملك بالتقوى والصلاح، وذكروا أنـه كـان شـديد الـورع يحافـــظ على الصـــلوات، و ينهي عن الغنـــاء لأنـــه رســـول الشيطان ، ويبكي من خشية الله .

وقد حج رضـي اللـه عنـه بالنـاس سـنة 97 هــ ، فعجب لكـثرة الحجيج ، وقـال لعمـر بن عبـد العزيـز :ألا تـري هـؤلاء الحجّـاج الذين لا يحصي عددهم إلا الله ولا يسـع رزقهم غـيره؟! فقـال له عمر : يا أمير المؤمنين هؤلاء رعاياك اليوم، وهم خصــماؤك غـدا أمـام اللـه تعـالي. فبكي سـليمان بحـرارة وقـال: باللـه استعين.

ثم خرج سليمان بن عبد الملك إلي مرج دابق بعـد خـروج جيش أخيــه مســلمة بن عبــد الملــك لفتح القســطنطينية وتــأديب الرومان الذين غدروا بجانب من جيش المسلمين ، وأوهمـوهم بالمصـالحة والأمـان، ثم قتلـوا عـددا منهم وأسـروا البـاقين. وأقسم سليمان ألا يرجع إلي دمشق حـتى يفتح الجيش مدينـة القسطنطينية أو يقبضه الله إليه قبـل ذلـك . وشـاء القـدر أن تتحقق الثانية، إذ أصيب سليمان بالحمى وأحس أسفا بـاقتراب أجله قبل أن يأتي خبر النصر.

وجاء إليه الوزير الصدوق رجاء بن حيوة فسأله ســليمان : لمن يعهد بأمر المسلمين؟ أجاب رجاء : إن مما يحفظ الخليفــة في قبره أن يولّي علي المسلمين رجلا صالحا. قـال سـليمان : مـا تقول في ابني داود ؟ أجاب رجاء : إنـه غـائب عنـك – كـان في

جيش مسلمة الذي توجه لفتح القسطنطينية – ولا ندرى هل حي أو ميت .. عاد سليمان يرشح ابنا له صغيرا لم يبلغ الحلم فعارضه رجاء بن حيوة حتى صرفه عن ذلك . سأله سليمان : ما تري في عمر بن عبد العزيز؟

استبشر رجاء خيرا وقال: أعلمه والله خيّرا فاضلا مسلما يحب الخير وأهله . صاح سليمان: هو والله علي ذلك – يقصد أنه سينفذ ترشيحه لعمر بن عبد العزيز وإن رفض إخوته أبناء عبد الملك – وهنا فكر الوزير الذكي لبعض الوقت ، ثم قال لسليمان : أري أن تجعل ولاية العهد بعد عمر بن عبد العزيز ليزيد بن عبد الملك ليرضي بذلك بنو مروان . ووافق سليمان وكتب عهده لعمر واستدعي كعب بن حامد العبسي صاحب الشرطة فقال له : اجمع أهل بيتي ومرهم فليبايعوا علي ما في هذا الكتاب – مغلقا – فمن أبى منهم فاضرب عنقه. وجاء إخوة سليمان والأمراء والوجهاء وأبناؤهم وأبناء عمومته ليزوروه وفوجئوا به يأمرهم بالبيعة لمن عهد إليه في الكتاب المختوم قبل أن يموت.

(12)

أما عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقد أدرك بفراسته أنه هو المرشح ولا أحد سواه، إذ لا مبرر لإخفاء اسم خليفة سليمان متى كان أحد أخوته أبناء عبد الملك، فهم لن يتصارعوا طالما بقيت لأحدهم.. وكان سبب تخوف عمر رضي الله عنه من المسئولية الثقيلة رؤيا زار فيها النبي صلي الله عليه وسلم في روضة خضراء ، وأخبره بأنه سيلي أمر الأمة ، وحذّره من الوقوع فيما وقع فيه من سبقوه ، وخاصة إراقة دماء المسلمين. وفي رؤيا أخري قال له الرسول صلي الله عليه وسلم : ادن – اقترب يا عمر، فأطاع عمر واقترب منه حتى خشي أن يصطدم به، فقال له صلي الله عليه وسلم :" إذا وليت فاعمل نحوا من عمل هذين " وأشار الي كهلين

بجواره ، فسأله عمـر : ومن هـذان ؟ فأجـاب صـلي اللـه عليـه وسلم : " هذا أبو بكر وهذا عمر بن الخطاب ".

حينئـذ أحس عمـر بن عبـد العزيـز أنـه هـو الـذي اسـتقر رأي سـليمان علي ترشـيحه للخلافـة ، فـذهب إلي رجـاء بن حيـوة وقال له : أنشدك اللـه وحرمـتي ومـودتي أن تعلمـني إن كـان كتب لي ذلك – الخلافـة – حـتى أسـتعفيه منهـا قبـل أن يـأتي حـال لا أقـدر فيـه علي مـا أقـدر عليـه الآن. لكن رجـاء رفض بإصرار أن يطلع عمر علي شيء مما كتبـه سـليمان في عهـده المختوم . ثم جاء هشام بن الملك إلي رجاء فقال له: يـا رجـاء إن لي بـك حرمـة ومـودة قديمـة، فـأخبرني عن هـذا الأمـر – الخلافــة – إن كــانت إليّ علمت وان كــان لغــيري نظــرت مــا يمكنني عمله ، فما مثلي يفوته هذا .. ورفض الوزير الأمين أن يطلع شـقيق الخليفـة أيضـا علي شـيء . وعنـدما صـعدت روح سليمان بن عبـد الملـك إلي الملأ الأعلى ، جـاء كعب بن حامـد صاحب الشـرطة ورجـاء بن حيـوة فجمعـا النـاس في المسـجد الكبير بدابق وأخذا البيعـة مـرة ثانيـة لمن في الكتـاب. تغـيرت وجوه بني مروان عندما قرأ عليهم رجاء بن حيوة عهد سليمان بن عبد الملك إلي عمر بن عبد العزيز . وغضب هشـام بن عبـد الملـك وكـان أكـثر إخوتـه طمعـا في الخلافـة ، وأعلن رفضـه مبايعة عمر بن عبد العزيز.

نهره رجاء بن حيوة رضي الله عنه ، وقال لـه بحـزم :" أضـرب عنقك واللـه .. قم فبـايع" .. وهـدأ البـاقون عنـدما سـمعوا أن ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك ، فقـاموا جميعـا ليبـايعوا عمـر بن عبد العزيز .. كان عمر رضـي اللـه عنـه جالسـا في مـؤخرة المسجد مشفقا يرتجف مما يسمع.

عندما تأكد أنـه ابتلي بالخلافـة ، راح يـردد:" إنـا للـه وإنـا إليـه راجعــون "!! إنهــا قولــة المــؤمن إذا أصــابته مصــيبة ، فهــل المنصب الذي تطمح إليه أبصار وأفئدة الكثيرين ، ويتصــارعون

عليه ، ويتفانون من أجله ، يمثل عند هذا الشاب التقي مصـيبة يسـترجع ويئن لوقعهـا عليـه ؟! أجـل .. أنهـا لكـبري المصـائب والتبعات ، أن تلقي أحمال مئات الملايين من المسلمين وأهل الذمة وهمومهم وآلامهم وأمالهم علي كتفي رجل واحـد كائنـا من كان .. وقد كان عمر رضي الله عنه يعلم أنها أمانة عسيرة الحساب ، شديدة العنـاء ، لا قبـل لبشـر بهـا إلا من أعـان اللـه وقليل ماهم.

حاول أن يقوم من مكانه فأبت قدماه أن تحملانه .. مكث برهة يغـالب نفسـه المـأخوذة من رهبـة المسـئولية. أدرك رجـاء بن حيـوة بفطنتـه مـا حـدث للأمـير، فـأمر الحـراس بحملـه حـتى وضـعوه علي المنـبر، وأمـر النـاس فـأقبلوا متهللين يبـايعون الخليفة الجديد ، ونهض عمـر بعـد فـترة ليخطب في النـاس .. إنـــه مـــا زال يحـــاول تخليص عنقـــه من أغلال الحكم وأهـــوال السلطة ، ومن حسراتها وأحزانها يوم القيامة إلا من رحم الله .. وقـد كـان يأخـذ علي من قبلـه أنهم يتـداولون الحكم فيمـا بينهم بغير شوري أو اختيـار حـر من المسـلمين، فكيـف يقبـل اليوم لنفسه ما أنكره علي غيره بالأمس ؟

وتكلم أخـــيرا فكـــان أول مـــا قالـــه :" أيهـــا النـــاس إني لســـت بمبتدع ، ولكني متبع ، وإن من حولكم من الأمصار – الأقاليم – والمـدن إن أطـاعوا كمـا أطعتم فأنـا واليكم، وإن هم رفضـوا فلست لكم بوال .. ويروي أيضا أنه أعفي من بايعوه وطـالبهم باختيار وال آخر بدلا منه !! إنه الـورع والتعفـف وعمـق الفقـه والبصيرة .. فإذا كان الإسلام ينهي الفرد عن إمامة المصلين – في الصـلاة – بغـير رضـا منهم ، فكيـف يتـولى الخلافـة عليهم بدون أذنهم ورضاهم ؟ ألمجرد أن الخليفة السابق اختاره لهـذا المنصب؟! لقد أن الأوان ليعود الحق إلي نصابه ، ويترك اختيار الحـاكم للرعيـة ، كمـا فعـل الرسـول صـلي اللـه عليـه وسـلم والخلفاء الراشـدون من بعـده.. ارتج المسـجد بصـيحات مدويـة

تجـــدد البيعـــة للأمـــير الراشـــد ، وتلح عليـــه في الـــتراجع عن موقفه ، فما يصلح لها غيره، وما يرتضون به بديلا، وقد علمـوا أنهم إذا تركـوه يعـودون إلي سـابق العهـد المريـر من الملـك العضـوض و الاسـتبداد البغيض الـذي نغّص علي الأتقيـاء دينهم وعيشـهم. وعنـدما أيقن عمـر أنـه لا مفـر أمامـه من قبـول المسـئولية خطب في الحاضـرين مـرة أخـرى قـائلا " أيهـا الناس .. من صـحبنا فليصـحبنا بخمس وألا فليفارقنـا .. يرفـع إلينـا حاجـة من لا يسـتطيع رفـع حاجتـه ، ويعيننـا علي الخـير بجهده ، ويـدلنا من الخـير علي مـا لا نهتـدي إليـه ، ولا يغتـابن عندنا أحدا ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه " .

بهذه الكلمات البليغة الموجزة وضع عمر دسـتور التعامـل بينـه وبين رعيته وعماله وحاشيته .. وعنـدما سـمع النـاس مـا قـال الخليفة الجديد أيقن العلماء والصـالحون والزهـاد أنهم وجـدوا أخيرا بقية من رشد الخلافة الأولي وتقواها، ويئس الظـالمون والمنافقون وبطانة السوء ، وقام كل مظلوم ومقهور ومجني عليه يبغي القصاص ورد المظالم علي يدي راشد بنى مروان .

(13)

بعد دفن سليمان بن عبد الملك جاء الحراس بمراكب الخليفة ، وهي جياد ثمينة عليها فـرش وزينـة فـاخرة .. تطلـع عمـر إلي الخيول وهو يتمتم :" ما شاء الله لا قوة إلا باللـه ".. كـل هـذه الخيول وزينتها باهظة الثمن من أجـل رجـل واحـد !! حـتى لـو كان هو حاكم المسلمين ، فمـاذا عليـه لـو قنـع بدابـة واحـدة ، وتخلص من هـــذا المـــوكب المهيب الـــذي هـــو إلي الريـــاء والمفاخرة أقرب من أي شيء آخـر ؟ ثم كيـف يرضـي الحـاكم بأن يخصص له مثل هذا الموكب بالغ الإسراف؟!

وكان القرار الأول الذي أصدره الخليفة الجديد هـو بيـع خيـول مـوكب الخلافـة وزينتهـا ولوازمهـا ، وإيـداع ثمنهـا بيت مـال المسلمين .. ومضي رضي الله عنه إلي بيتـه مهمومـا، فسـأله

أحـــد مرافقيــه: مالــك مهمومــا هكــذا وليس هــذا وقت الهم والغم ؟ قال له عمر :

" ويحــك .. ومــالي لا أغتم ، وليس أحــد من أهــل المشــارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني أن أؤدي حقـه إليـه ، كتب في ذلــك إلي أو لم يكتب ، طلبــه مــني أو لم يطلب " .. هكذا كان يفكر العبـد الصـالح الـذي يقـدر المسـئولية ، ويـدرك التبعة .. وعندما جـاء صـاحب الشـرطة ليسـير بين يديـه حـاملا الحربة – علي عادته في مواكب من سبقه من الخلفـاء – نهـره عمر وأمره بأن يتنحى عن موضعه ، فمـا الخليفـة إلا رجـل من المسلمين .. وعندما وصل عمر إلي دمشق توجه إلى المسجد فصعد المنبر أيضا وقال للناس : إني قد ابتليت بهذا الأمــر عن غير رأي مني فيـه ولا طلب لـه ، ولا مشـورة من المسـلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسـكم ولأمـركم من تريـدون.. تصـايح الحاضـرون بصـوت واحـد : قـد اخترناك لأنفسنا ورضينا بك كلنا: .. لا مفـر إذن يـا عمـر فهـذا قدرك المحترم .قالها لنفسه يائسا من تراجعهم عن بيعته. بعد برهة حمد الله وأثني عليه وقال : أوصيكم بتقـوى اللـه ، فـإن تقوى الله خلف من كل شـيء، وأكـثروا من ذكـر المـوت فإنـه هادم الملذات ، وأحسنوا الاستعداد لـه قبـل نزولـه ، وإن هـذه الأمة لم تختلف في ربهـا ولا في نبيهـا ولا في كتابهـا ، وإنمـا اختلفــوا في الــدينار والــدرهم ، وإني واللــه لا أعطي أحـــدا باطلا ، ولا أمنع أحدا حقا .. أيها الناس .. من أطاع اللــه وجبت طاعته ، ومن عصي الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإن عصيت ربي فلا طاعة لي عليكم " .

وفور نزوله من المنبر أمر بالستائر والثياب التي كـانت توضـع للخلفاء فعرضت للـبيع ، ووضـع ثمنهـا في بيت المـال .. وأبى رضي الله عنه أن ينزل بدار الخلافـة حـتى تفـرغ بعـد حين من آل سـليمان بن عبـد الملـك .. ولم يكـد عمـر يضـع رأسـه علي

وسادة في بيته ليستريح – وقت الظهيرة – حتى طرق عليه ابنه عبد الملك الباب .. قال لأبيه : أتقيل – تستريح وقت القيلولة – يا أمير المؤمنين ، ولا ترد المظالم إلي أهلها ؟ قال عمر : إني قد سهرت البارحة في أمر سليمان – دفنه – فإذا صليت الظهر رددت المظالم . قال له ابنه : ومن يضمن لك أن تعيش إلي الظهر؟ إنها ذرية بعضها من بعض حقا . قبّل عمر ولده سعيدا بتقواه ونصحه له بالخير، وقام من فوره إلي المسجد حيث نادي مناديه أصحاب الحقوق والمظالم ليعرضوها علي الخليفة .. كانت المظلمة الأولي هي شكوى أحد الذميين – أهل الكتاب – من أن العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصب أرضه بحمص .. كان العباس موجودا فسأله عمر : ما تقول يا عباس ؟ أجاب العباس : نعم .. أعطاني أبي هذه الأرض – وقت خلافته – وكتب لي بها سجلّا – عقدا – قال عمر : ما تقول يا ذمي ؟ أجاب الرجل : يا أمير المؤمنين كتاب الله تعالي .. قال عمر : نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد .. يا عباس قم فرد إلي هذا الرجل أرضه ، وأطاع العباس بلا تردد .

جاء عمر إلي بيته .. أسرعت إليه زوجته الحسناء فاطمة بنت عبد الملك لتهنئه بالخلافة .. ذهلت عندما رأت ما يكسو وجهه من شحوب وهم .. تركته داخل المسجد الصغير الذي أقامه في ركن من بيته حيث جلس واضعا يده علي خده و تساقطت الدموع من عينيه .. روعت فاطمة. أقبلت عليه تسأله في فزع : مالك ؟ أجاب عمر "يا فاطمة .. إني قد وليت من أمر هذه الأمة ما تعلمين ، ففكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت إن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم محمد –

صـلي اللـه عليـه وسـلم – فخشـيت أن لا تثبت لي حجـة عنـد مخاصمته ، فـرحمت نفسـي فبكيت .. راحت فاطمـة تواسـيه ، وتهون عليه .. تطلـع إليهـا .. إنهـا شـريكة عمـره ، وأم ولـده ، وابنة عمه ، لكن عمر رضي الله عنه كان يفكر في أمر ، طالما نغص عليه صفاء روحه ، وظلل حبه لزوجته فاطمة بسحابة من الاسـتياء والضـيق . لقـد آثرهـا أبوهـا عبـد الملـك بن مـروان بجواهر جاءت إليه من غنائم الفتوحات الكثيرة في عهده. وقـد كان عمر يكره أن يراها علي جسـد زوجتـه وهـو يعلم جيـدا أن مكانها هناك في بيت مال المسـلمين .. وقـد بـدأ خلافتـه بـرد الحقوق إلي أهلها حتى خاتم صغير أعطاه له الوليد يومـا قـام بـــرده إلى بيت المـــال، وعليـــه الآن أن يمضـــي حـــتى نهايـــة الشوط ، ولا ينسي أهله والمقربين إليـه .. قـال لفاطمـة : أي زوجتي الحبيبـة . عليـك الآن أن تختـاري .. إمـا أن تـردّي هـذه الحلي إلي بيت المال ، أو أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكـون أنـا وأنت وهـذه الحلي في بيت واحـد .. دمعت عينـا فاطمـة . لقـد أحبت عمـر منـذ بـاكورة الصـبا لتقـواه ومكـارم أخلاقه وعلمه، ولم يدر في خلدها يوما أن تفكر في المفاضـلة بين الحياة معه وبين كل أموال الدنيا ونعيمهـا الفـاني ، وإنهـا لتعلم علم اليقين أنه صـادق في رد أمـوال المسـلمين إليهم، وأن زوجها رجل لا يخشى في اللـه لومـة لائم ، ولا يـبيع دينـه لإرضاء صاحبة أو ولد .. هتفت على الفـور : بـل اختـارك عليـه وعلي أضعافه .. قامت إلي حجرتها فجمعت حليها ،وخلعت مـــا كانت ترتدي، وجاءت بكل ثمين وغال من متاعها ووضـعته كلـه في صندوق بين يدي زوجهـا ، فـأمر بحملـه إلي بيت المـال .. سألته فاطمة : هل استرحت الآن يا أمير المؤمنين ؟ رد عليهـا قائلا أن هناك أمرا ثانيا يريد إطلاعها عليه .. تطلعت إليـه في لهفة. نادى رضي الله عنه كل جواريه. أقبلن بسرعة ليسـمعن ما يقول .. راح يتفرس فيهن ، وينقـل بصـره بينهن .. لطالمـا

استمتع بهن أيام الفراغ والشباب والنعيم ، أما الآن فقد نزلت به أمور جسام ربما منعته من أداء حقوق نسائه عليه ، وحاشـا للـه أن يـترك مشـاكل المسـلمين ومصـائرهم لينعم بـالتعطر والتنقل بين مخادع نسائه، وإن كان ذلك كله حلالا طيبـا يـؤجر عليه. قال لهن: قد نزل بي أمـر شـغلني عنكن: فمن أحبت أن أمسكها أمسكتها وإن لم يكن مني إليهـا حاجـة- يقصـد أنـه لن يكون متفرغا لهن – فبكت الجواري وعلت صرخاتهن حزنا علي حرمانهن من سيدهن الـذي يحبـه الجميـع، وآثّـرن البقـاء معـه علي الحرية. وكذلك بكت فاطمة رضي الله عنها عنـدما خيّرهـا عمر بين البقاء معه بلا فراغ منه لهـا ، وبين الطلاق ، ورضـيت بالبقاء إلي جانبه لتعينه علي أمر الخلافة مهما كلفها ذلـك من تضحيات .. وكذلك أعتق عمر أحب جواريه إلى قلبه وكـانت من بلاد المغرب بغير أن يقربها، عندما علم أنهـا وقعت في الأسـر بطريق الخطأ ،وأن واليه هناك اتخـذها جاريـة لمعاقبـة والـدها على جناية ارتكبها ،فأمر الخليفة بردها إلي أهلها حرّة كريمـة لم يمسسها أحد بسوء .

(14)

أنجز عمر رضي الله عنه خلال فترة خلافته القصيرة-عامان ونصف فقط- من الأعمال الخالدة،ما لا يستطيع غيره إنجازه في عشرات السنين وما يستعصى على الحصر. فقد بسط العدل في كل أنحاء البلاد الإسلامية من أفغانستان والهند شرقا إلى أقصى بلاد المغرب العربي غربا. وعم الرخاء الجميع على نحو لم يسبق له مثيل . ثم هناك أيضا بسط الأمن بلا بطش أو سفك للدماء كما وقع في عهود من سبقوه من حكام بنى أمية. وتحرر في عهده المبارك مئات الألوف من العبيد والجواري. فقد فاضت أموال الزكاة والخراج والصدقات في خلافته، ولم يجد ولاته على الأقاليم فقراء يعطونها لهم ، فاشتروا بها مئات الألوف من العبيد وأعتقوهم .و من أعمال

عمر رضي الله عنه أيضا المذكورة إنقاذ جيش مسلمة بن عبد الملك، من مكيدة خبيثة نصبها له الرومان قرب القسطنطينية. والقائد العبقري الشجاع ليس هو ذلك الذي يهاجم بجرأة وبسالة فقط ،إنما هو الذي يتقدم وينقض حين تكون الظروف مواتية لذلك، وينسحب بانتظام عندما يكون الاستمرار في القتال ضربا من الجنون والانتحار. وقد كان عمر رضي الله عنه من الأتقياء الذين يضنون بالدماء الطاهرة الذكية، أن تراق عبثا في معركة خاسرة. ولهذا أرسل إمدادات عاجلة من الطعام والمؤن، إلى جيش مسلمة، وأمره بالعودة إلى الشام بعد أن انقضت على الجنود فترة طويلة قاسوا خلالها من ندرة الطعام والماء وسوء الأحوال الجوية وغدر الأعداء.

وطوال عهد عمر قل نشاط الخوارج المناهض للدولة، فقد أحجم الكثيرون منهم عن مناصبة الخليفة العادل العداء، وأيقنوا أنهم لن يجدوا عليه من المآخذ والعيوب ما كانوا يجدونه فيمن سبقوه من حكام بني أمية. أما القلة القليلة التي أصرّت على الباطل ، فقد وكّل بها عمر جيشا شتت جماعتها وكسر شوكتها، بعد أن عجز الحوار والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة عن كبح جماحها.

كان رضي الله عنه ينهى جنوده عن قتل من لا يحاربهم من الخوارج، ويأمر الولاة بأن يحبسوا من يؤذي الناس منهم، بعض الوقت حتى يهتدي إلى الحق أو يجعل الله له سبيلا.

كذلك أبطل عمر ما كان بعض الأمويين قد ابتدعوه من الشر والبهتان وقطيعة الأرحام. فقد كان بعض من سبقوه يأمرون خطباء المساجد بسب الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على المنابر ، فلما ولى عمر الخلافة نهى عن ذلك، وكتب إلى نوابه في البلاد يأمرهم باستبدال السباب والفسوق والعصيان بآية من كتاب الرحمن تقول:" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر

والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون". ولا تزال هذه الآية الكريمة تتلى على المنابر إلى يومنا هذا. وكان يثني على الإمام علي. ويقرب إليه بناته و أحفاده، ومن يأتيه من بني هاشم لقرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال لأحدهم ذات مرة:
إني أستحي من الله أن تقف ببابي ولا يؤذن لك.
وقال لآخر: إني أرغب بك عن دنس الدنيا – يقصد أنه لا يوليه منصبا في خلافته – لما أكرمكم الله به... ويصف ما كان بين بني هاشم وبني عمهم من الأمويين من تنافس قائلا: كنا وبنو عمنا أل هاشم نتسابق، مرة لنا – نسبقهم في الفضل – ومرة لهم، نلجأ إليهم ويلجأ ون إلينا حتى طلعت شمس الرسالة فأكسدت كل نافق – هالك – وأخرست كل منافق، وأسكتت كل ناطق.
ولهذه الخصال النبيلة والسجايا الكريمة أحبته الرعية وأحبه آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، حتى كانت فاطمة بنت علي كرم الله وجهه تثني عليه بعد موته، وتقول: جزاه الله خيرا لو كان بقى لنا ما احتجنا بعده إلى أحد". ولا عجب فإنه أحد الذين جعل لهم الله محبة في القلوب بغير سعي منهم للظفر بها، وذلك جزاء المتقين.

(15)

لم يكن عجيبا أن يؤيد الله عمر بن عبد العزيز بالكرامات المادية والمعنوية، لأن من أطاع الله أطاعه كل شيء ، ومن خاف الله هابه كل شيء، والله سبحانه أكرم من أن يترك وليّا

له بغير عون على ما يريد من الإصلاح وتقوى الله في كل أمر ... كانت الذئاب تعيش مع الأغنام في مكان واحد فلا تفترسها !! وكان الناس يذهلون لهذا المشهد الذي لم يروا له مثيلا من قبل ولا من بعد ... يقول حسن القصّاب رضي الله عنه: رأيت الذئاب ترعى مع الأغنام في البادية أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز، فقلت: سبحان الله ... ذئب في غنم لا يضرها ! فأجابني الراعي: إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس ... وقال التابعي الجليل مالك بن دينار رضي الله عنه: لما ولي عمر بن عبد العزيز تساءل الرعاة في أقاصي البادية: من هذا الرجل الصالح الذي قام خليفة على الناس، فإن عدله كفّ الذئاب عن أغنامنا ؟!

وقال موسى بن أعين: كنا نرعى الأغنام في " كرمان " في خلافة عمر بن عبد العزيز، فكانت الشاة ترعى مع الذئب بسلام ، وذات يوم هجم الذئب على الشاة ليفترسها، فقلت: " إنا لله وإنا إليه راجعون " ما أرى الرجل الصالح إلا قد مات. وحسبنا تلك الليلة فوجدناه قد مات فيها بالفعل.

ورأى أحد أبناء خراسان في منامه هاتفا يقول له: إذا حكم أشج بني مروان فاذهب إليه، وبايعه فإنه إمام عادل ... وظل الرجل يتساءل كلما ولى خليفة عن طباعه حتى جاء عمر بن عبد العزيز، فرأى هذا الرجل في منامه نفس الهاتف الذي جاءه من قبل ثلاث مرات أخرى، فارتحل إلى الشام وبايع عمر رضي الله عنه. وكان الله تبارك وتعالى يبشّر عبده الصالح بالخير، ويعينه على فساد الزمان وقلة الأعوان كيلا يحزن أو يضعف عن أمر المسلمين ... رأى عمر نفسه ليلة محمولا إلى أرض خضراء واسعة فيها قصر أبيض بلون الفضة ... وخرج مناد من القصر فهتف: أين محمد بن عبد الله رسول الله ؟ فأقبل الرسول صلى الله عليه وسلم حتى دخل القصر. ثم نادى أبا بكر بن قحافة فدخل، ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان

بن عفان ثم علي بن أبي طالب ثم عمر بن عبد العزيز فدخلوا جميعا رضي الله عنهم ورضوا عنه ... وجد عمر بن عبد العزيز نفسه جالسا في القصر إلى جوار جده الفاروق عمر بن الخطاب فامتلأت نفسه حبورا ورهبة .. أحس أنه الآن بالأفق الأعلى حيث القرب من الحضرة الإلهية المقدسة ... كان النور الساطع يملأ عيني عمر بن عبد العزيز وقلبه ... إنه النعيم المقيم حيث لا مزيد ولا قبل ولا بعد.

حيث ما لا عين رأت وما لا أذن سمعت وما لا يخطر على قلب بشر. إنه الآن أمام النور الأزلي الخالد، وإلى جواره يجلس النبي والصديقون والشهداء والصالحون وأكرم بهم من رفاق يشرف بهم الجن والإنس والملائكة أجمعون.

حاول ابن عبد العزيز أن يرى شيئا فلم يقدر ... بعد لحظات سمع مناديا من قبل الحضرة الإلهية المقدسة ولم يره ...

هتف به الصوت الخالد: " يا عمر بن عبد العزيز تمسّك بما أنت عليه واثبت على ما أنت عليه " .. أجل، كان لا بد أن يجد عمر رضي الله عنه هذا التثبيت من رب السماوات السبع ورب الأراضين ورب العرش العظيم. فهو العوض عن كل ذي عوض، وهو السلوى عن كل مصيبة، وهو سبحانه نعم المولى جلت قدرته. ثم تلقى عمر بن عبد العزيز إذنا بالانصراف في رؤياه. واستيقظ باكيا سائلا ربه العون والتثبيت في اليقظة كما رأى في المنام.

(16)

عمت بركات الحاكم الصالح أمته في المشرق والمغرب. يقول عمر بن أسيد رضي الله عنه: والله ما مات عمر حتى كان الرجل من رعيته يأتينا بالمال الوفير – الزائد عن حاجته – فيقول: اجعلوا هذا المال حيث ترون – من أوجه الإنفاق في

الخير – فما يبرح إلا ومعه ماله كما جاء به، لقد أغنى عمر الناس !
وكتب إليه واليه على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب يخبره بأن أموال بيت مال العراق قد زادت عما كانت عليه في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي – الطاغية الشهير- أضعافا كثيرة ، وأنه لم يجد مصرفا لهذه الأموال الطائلة بعد أن شبع الفقراء، واغتنى المساكين، وأمن أبناء السبيل على طعامهم وشرابهم، في كل مكان ينزلون به. حمد عمر ربه على نعمته، وخطب في الناس ليعظهم بذلك، فإن ظلم الحجاج وبطشه نزع البركة من الأرزاق والأقوات، وجاء عدل من بعده من الولاة على العراق بالخير والبركات.
وأمر عمر ولاته على العراق وغيره من البلدان بأن ينفقوا فائض الخراج والزكاة على الشباب الراغب في الزواج ليغض بصره ويحصن فرجه، ويكثر نسل الموحدين بالله المسلمين له.
فإن فرغوا منهم فليعطوا المدينين والغارمين، وأبناء السبيل وغيرهم من أصحاب الحقوق. ولم ينس عمر رضي الله عنه طلبة العلم، فأوصى بأن يفرض الولاة نصيبا وافرا من المال لكل من ينقطع متفرغا للدراسة والتحصيل، في مختلف العلوم الدينية والدنيوية النافعة ، لأن هؤلاء هم أمل الأمة وشعلة حضارتها الموعودة ، وبغيرهم يسود الظلم والظلام والجهل في ديار المسلمين .
وكان عمر رضي الله عنه يرسل كل يوم من ينادي : أين اليتامى ؟ أين أبناء السبيل ؟ أين طلبة العلم ؟ أين ... أين ؟ فيعطي كلا منهم حاجته من المال ليجنبه مذلة الفقر و ليتعفف عن سؤال الناس . لكنه مع كل هذا السخاء لأصحاب الحق في بيت مال المسلمين ، كان شديد الصرامة مع غيرهم من الحاشية والأقارب والمنافقين والمدّاحين . كان للخليفة

ستمائة شرطي وحارس خاص له، فقال لهم عمر : إن لي عنكم بالقدر حاجزا والأجل حارسا، فمن شاء منكم فليلحق بأهله ، ومن بقي فليس له سوي عشرة دنانير. وكتب إليه أحد عماله يخبره أن المدينة التي يحكمها قد خربت ويطلب منه دعما ماليا ليعيد بناء ما تهدم ، ويرمم منها ما تصدع. فرد عليه عمر: حصّن مدينتك بالعدل ، وطهّر طرقاتها من الظلم فإن هذا وحده هو ترميمها . وكتب إليه وال آخر يشكو من كثرة من يعتنقون الإسلام لأن هذا يعنى توقفهم عن دفع الجزية ،فرد عليه الخليفة العظيم: إن الله تعالى بعث النبي محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا. وجاء إليه الشعراء عندما تولي الخلافة ، فمكثوا أياما واقفين علي بابه لا يؤذن لهم، حتى جاء عدى بن أرطأة فناشده " جرير" الشاعر المشهور أن يستأذن لهم الخليفة ، فقال عدى لعمر رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ، الشعراء ببابك ، سهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة ،يقصد أن يلفت انتباهه إلي ضرورة كسب ود الشعراء بالعطايا والهبات ، كما كان غيره يفعل فقال له عمر : ويحك يا عدى مالي والشعراء ؟

قال عدى : إن الرسول صلي الله عليه وسلم كان يسمع الشعر ويجزى به. فراح عمر يستجوبه حتى اطمأن إلي أن نبي الهدي كان يسمع الشعر النبيل الهادف ، فأذن لجرير وحده بالدخول لأنه كان الشاعر الأقل فحشا وانحرافا بين الموجودين. قال له عمر : ويحك يا جرير اتق الله فيما تقول ، فأنشده جرير قصيدة طويلة يمدح فيها الرسول صلي الله عليه وسلم وعمر بن عبد العزيز . وأبى عمر أن يعطيه من بيت المال ما ليس له بحق، وأعطاه مائة درهم فقط من ماله الخاص كانت قد بقيت معه .

وخرج جرير إلي زملائه الشعراء فقال لهم : جئتكم بما يفجعكم ، أمير المؤمنين يعطي الفقراء ويمنع الشعراء ، وأنا عنه راض.

(17)

كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنتين وبضعة أشهر كما أسلفنا ..و رغم قصر المدة استطاع الفتي الأموي أن يجدد شباب الإسلام وأن يعيد إلي الأذهان كل خصائص العهد الأول الذي طبّق فيه منهج الله كاملا غير منقوص .. ولم يتحقق له ذلك بسهولة ويسر ، إنما كان الثمن باهظا ، وكانت التضحيات بلا حدود .

كان يعيش وأهله في أدنى درجات الكفاف ، وأبى أن تدخل جوفه لقمة من بيت مال المسلمين ، رغم أنه أحدهم ، ويحق له أن يحصل مثلهم علي نصيب منه .. اشترى له غلامه قطعة من اللحم وشواها له في المطبخ العام الذي يعد فيه طعام الفقراء والمساكين ، فلما علم عمر بذلك أبى أن يأكلها ووهبها لغلامه لمجرد أنها طبخت بوقود من بيت المال !! وسخّن له الغلام بعض الماء في المطبخ العام ، فأمر بشراء حطب بدرهم من ماله الخاص ليوضع في بيت المال عوضا عن تسخين الماء له في المطبخ !! وكان لا يكتب ليلا علي ضوء مصباح بيت المال إلا لمصالح المسلمين ، أما حاجاته الخاصة فكان يقضيها علي ضوء مصباح أخر يملكه .. وكان شديد التواضع يخدم نفسه بنفسه ، ولا يرهق الخدم أو الرعية بما لا يطيقون .

ولم يضرب عمر بن عبد العزيز أحدا من الرعية سوطا قط طيلة خلافته ، بينما كان من قبله من حكام بني مروان يسفكون الدماء ويستحلون المحرمات لأتفه الأسباب .. كان يعلم أن الله تعالي يغضب أشد الغضب علي الحاكم الخائن لأمته ، كما كان يعلم سوء مصير أى طاغية يستعبد الناس وقد

ولدتهم أمهاتهم أحرارا .. ولعل آخر خطبة ألقاها تكشف جوهر هذا الحاكم الراشد ، والكثير من المبادئ الإسلامية العظيمة التي أفني شبابه وماله وعمره كله من أجل تطبيقها ونشرها بين الناس .. صعد رضي الله عنه إلي المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :" أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى ، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر اليوم الآخر وخافه ، وباع فانيا بباق ، ونافدا بما لا نفاد له ، وقليلا بكثير ، وخوفا بأمان .

ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيكون ما بعدكم للآخرين ، حتى تردون إلى خير الوارثين ، فاتقوا الله قبل القضاء ، وراقبوه قبل نزول الموت بكم ... أما إني أقول هذا ، ولا أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي وأستغفر الله " ... ثم بكى رضي الله عنه حتى ابتلت لحيته وبكى الناس معه ... إنه عمر ذلك الخليفة الذي لم يجامع قط ولم يحتلم وهو خليفة رغم أنه كان في عنفوان الشباب ، وكانت له زوجة من أجمل نساء عصرها ، وجوار فاتنات ناعمات من كل جنس ولون .و عندما أصابه مرض الموت جاءوا إليه ببنيه وكانوا بضعة عشر ذكرا وقالوا له : أما تركت لهم شيئا من المال ؟ رد رضي الله عنه بيقين الأولياء : " والله لا أعطيهم حق أحد ، وهم بين رجلين ، إما صالح فالله يتولى الصالحين ، وإما غير ذلك فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله " ....

ودعا لهم قائلا : انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم ... ويروى أن الله تعالى أغناهم من فضله بصلاح أبيهم، حتى كان أحدهم بعد موت أبيه بسنوات يتبرع بجهاز ألف فارس في الجيش لوجه الله .

ودخل عليه مسلمة ابن عبد الملك فرأى قميصه متسخا فقال لأخته فاطمة : ألا تغسلون قميص المؤمنين ؟ فردت عليه : والله ما له قميص غيره ... ثم بكت وبكى أخوها ومن حولهم رحمة بالرجل الصالح ... وبينما كانت فاطمة وشقيقها مسلمة يجلسان على باب الحجرة التي يحتضر فيها خير من حكم المسلمين من بني أمية كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يحلق بروحه الطاهرة متأهبا للصعود إلى الفردوس الأعلى . كان يشخص ببصره بشدة إلى أعلى فسأله من حوله : إنك لتنظر نظرا شديدا يا أمير المؤمنين . رد ولي الله بحبور : إني أرى حضورا كراما لا ترونهم . أخرجوا عني . وعندما تركوه سمعته فاطمة وشقيقها مسلمة يقول بصوت مطمئن مستبشر : مرحبا بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان . وكانت روائح ذكية لم يشم مثلها بشر تنبعث من الغرفة ، وصوت ملائكي لا يرون صاحبه يرتل في خشوع : " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين " ... صدق الله العظيم .

أهم المراجع

1- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي.

2- البداية والنهاية للإمام ابن كثير .

3- حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى.

4-تاريخ الأمم والممالك لابن جرير الطبري.

5-تاريخ دمشق لابن عساكر.

6-مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى.

7- عمر بن عبد العزيز لخالد محمد خالد.